الفصل الرابع عشر

فلسطين فى القرن التاسع عشر

٧٤ - بونابرت فى فلسطين

ظلت فلسطين منذ فجر التاريخ والأرياح الآسيوية تقذف إليها أمواج القبائل المتلاطمة غير أن تلك الريح تبدلت وهب عليها من الغرب ريح عاصف فرماها بالإسكندر وبومبى وغودفرى وقلب الأسد ونابليون بونابرت أكبر القواد وأشهر نوابغ الحرب الذى ترقى من ضابط بسيط إلى قائد «جنرال» وإمبراطور عظيم فحارب إيطاليا والنمسا وروسيا وأسبانيا وزلزل عروش ملوكهم واستولى عَلَى كثير من بلادهم وممالكهم ولم يبق أمام دولة فرنسا إلا إنكلترا التى ظلت تناصبها العداء وتحرك عليها الدول فأثارت غضب الفرنسيين وأخذوا يفكرون فى القضاء عليها فلمعت بارقة أمل إلى نابليون وخطر له أن ينشئ حكومة شرقية يزاحم بها إنكلترا فكتم ما فى نفسه وطلب لزملائه أن يجهزوا له جيشًا ليحتل بهِ مصر مجرى تنفس الإنكليز ويسد عليهم طريق الهند ويجز ناصيتهم فجهزوا له جيشًا وأسطولاً واستصحب معه ١٢٢ رجلاً من المتخصصين فى جميع العلوم لدرس القطر المصرى وتسلل خلسة وهبط مصر فأخذها ونظم إدارتها فاستشاط الإنكليز غضبًا وشجعوا الدولة العثمانية على محاربة الفرنساويين واسترجاع مصر ووعدوهم بالمناصرة فأمر العثمانيون الجزار والى عكا بأن يتقدم إلى مصر فذهب وامتلك العريش فاغتاظ نابليون من ذلك وجعل يعد حملة ليفتح بها فلسطين وسورية وينقض عَلَى الهند فاسترفق بعضًا من علماء الدين الإسلامى ليستعين بمركزهم الدينى عَلَى تنفيذ مآربه السياسية وفى سنة ١٧٩٩ سار الجنرال كليبر Kleber إلى فلسطين فقابل قائد جيوش الجزار قاسم بك خارج العريش وحار بهُ وشتت جمعه

وأخذ ذخائره ولحقهُ نابليون باثنى عشر ألف مقاتل فاحتل العريش وأمَّن أهلها ثم سار إلى غزة[1] مفتاح فلسطين الجنوبى فتسلمها بلا حرب وأتى بعد ذلك إلى الرملة[2] فأرسل فرقة من جيشهِ لمهاجمة يافا الغاصة بجنود الجزار المؤلفين من عرب وأتراك ومغاربة وأرنؤوط وأكراد وجركس فحصروا المدينة مدة ثم فتحوها فانسحبت الحامية إلى بعض الخانات وأبوا التسليم قبل أن يؤمنهم عَلَى حياتهم فأجابهم إلى طلبهم القائد الأفرنسى فاستأمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر ولما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التى سلمت إليه أمانًا وقبلهم حقنًا للدماء فبهت وحار فى أمره وقال ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد؟ أعندكم زاد يكفيهم ألكم مراكب تنقلهم لمصر أو فرنسا؟ ومن يتولى خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين ثم استشار ضباطه فى قتلهم فخالفوه ولكنهُ أصر عَلَى رأيهِ وأمر بهم فقتلوا رميًا بالرصاص فى ١٠ آذار سنة ١٧٩٩ م.

وأمر بقتل مرضى جنده وجرحاهم ولم يوار سوآتهم ولعمرى إن هذا لمن أفظع الفظائع التى تنسينا همجية الآشوريين وقساوتهم مع أسراهم وتذكرنا ببربرية جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك واثيلا الذين كتبوا تاريخهم بمداد أحمر وسطروا صفحات أيامهم بأسوأ الذكرى وأوحشها ومهما اعتذر عنهُ التاريخ وسرد له حججًا قاطعة تبيح له قتلهم ليتخلص من مؤونتهم أو لأنهُ أسر بعضهم فى غزة والعريش وأطلقهم بشرط ألاّ يحاربوه ثانية فإن كل هذه الأعذار لا تبرر عمله.

١ – لأنهُ عاش فى القرن التاسع عشر عصر المدنية كما يقال لا فى أيام الهمجية.

٢ – ولأنهُ جاء من فرنسا مهد المدنية وأم الحرية ذات العواطف البشرية الرقيقة.

---

(١) ومكث مدة فى بناية آل رضوان «مأوى الدرك» اليوم.

(٢) كان مركز أركان حربه دير اللاتين وقد دخلنا غرفته فوجدناها بسيطة.

٣ – ولأنهُ ظهر فى الثورة الفرنسية وكـان غصنًا مـن دوحـة دعاتـها الذيـن كـان شعارهم الحرية والمساواة والعدالة والأخوة.

ولكن ليس من السهل أن نقسو فى الحكم عَلَى نابليون فقط فإنا لو وضعنـا فـى مركزه لودندورف وجوفر وفوش واللنبى ولم يجدوا من يسوق الأسرى إلى مصـر ولم يكن لديهم طعام يكفيهم لجوَّزوا لأنفسهم قتلهم وإعدامهم وما قتل ٤٠٠٠ شـخص فى حكم الطبيعة إلا كجمل دب عَلَى سرب نمل فداسهُ وحطمهُ وأباده.

٧٥ – نابليون والقدس

عجب رجال الدين من نابليون كيف أهمل القدس ولم يبال بها مع أنـها البلـد التى يجلها المسلمون والمسيحيون وغـاب عنـهم أن نـابليون مـا كـان ينظـر إليـها إلا من الوجهة العسكرية ولذلك لم يجوز لنفسهِ أن يركب بجيشهِ الأهوال قبـل أن يمهد السبل ويقضى عَلَى الجزار عدوه العنيد فطلب مـن حاميـة القـدس تسـليمها فأجابته بأن مدينة القدس تابعة لعكا فمتى فتحتها تسـلم إليـك، فتركـهم وشـأنهم وانصرف لحصار عكا عاصمة فلسطين وحصنها المنيع وبعث بمنشور إلى أهل مصر نرويه بالحرف الواحد كما ذكره زيدان ونلفت أنظار القارئ إلى أسـلوب بونـابرت الذى اتخذه لإرضاء المصريين والمسلمين وهيهات أن ينجح ساسة الغـرب بتملقـهم بعد أن أدرك الشرقيون نياتهم ومقاصدهم.

٧٦ – منشور نابليون(*)

بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل فى ملكه ما يريد هذه صـورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الأقطار الشامية.

نعـرّف أهـل مصـر وأقاليمـها أن العسـاكر الفرنسـاوية انتقلـوا مـن غـزة ثـالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة فى ٢٥ منه فى أمن واطمئنان وشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجـدوا فـى الرملـة ومدينـة اللد مقدارًا كبيرًا من مخازن البقسماط «الكعك» والشعير ووجدوا أيضًا ١٥٠٠ قربة

(*) تاريخ مصر الحديث.

مجهزة جهزها الجزار ليسير بها إلى إقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه إليها مع العربان الأشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته فى أهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنهُ من التجبر والظلم والجور فإنهُ تربية المماليك الظلمة المصريين وفاتهُ أن الأمر لله وكل شيء بقضائه وتدبيره.

وفى السادس والعشرين حلت طلائع الفرنسيين بندر يافا من الأراضى الشامية وأحاطوا بها وحصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزار أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل بهم وبعسكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد. وفى ذلك اليوم أى ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنساوى عَلَى محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهن عَلَى طريق عكا عَلَى مسافة أربع ساعات من يافا وفى سبعة وعشرين منه أمر حضرة سارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة إذ عرف أن سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة ومشحون بعساكر الجزار الوفيرة.

وفى ٢٩ منهُ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة من السور فأمر سارى عسكر أن تنصب المدافع عَلَى المتاريس وأن توضع أهوان القنابر بإحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البر والمراكب التى أعدها عسكر الجزار فى المينا للهزيمة والفرار ولما رأى عسكر الجزار المحاصرون فى القلعة أن عديد الفرنساويين قليل أغراهم الطمع فخرجوا إليه من القلعة مسرعين ظنًا منهم أنهم يتغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيون وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم عَلَى الدخول إلى القلعة ثانية وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان أشفق حضرة سارى عسكر وخاف عَلَى أهل يافا إذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل إليهم مع رسول خطابًا هذا مضمونه.

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له بسم الله الرحمن الرحيم»

من حضرة سارى عسكر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا نخبركم أن حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمرنا أن نعرفكم فى هذا الكتاب أن سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو إخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لأنهُ تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال أنها إقليم مصر التى أنعم الله بها علينا فلا تجوز له الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره.

ونعرفكم يا أهل يافا أننا حصرنا بلدكم من جميع أطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفى برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم أن حضرة سارى عسكر لمزيد رحمته وحنوّه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فإنهم إذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعًا ولذلك أمرنا أن نرسل إليكم هذا الخطاب تأمينًا لأهل البلد ولاسيما الضعفاء والفقراء والغرباء وأن نؤخر ضرب المدافع وإطلاق القنابر ساعة واحدة وإنى لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا».

فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية فتميز سارى عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبه وأمر بإطلاق المدافع والقنابر ولم يمض إلا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار فى وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور المدينة وارتج له القوم ونقب من الجهة التى ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مُدافع وفى الحال أمر حضرة سارى عسكر بالهجوم وفى أقل من ساعة ملكت العساكر الفرنساوية البندر والأبراج ودار السيف فى المحاربين وحمى الوطيس وكَثُر القتل وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبه لاسيما عَلَى من كان فى يافا من أهل مصر فأعطاهم الأمان وأمرهم بالعودة إلى الأوطان وكذلك أمر أهل دمشق وحلب بالرجوع إلى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته وقتل فى هذه الوقعة أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف أما الفرنساويون فلم يقتل منهم إلا القليل وسبب ذلك أن سلوكهم إلى القلعة كان

فى طريق أمينة خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا عَلَى المراكب التى فى الميناء ووجدوا فى القلعة نيفًا وثمانين مركبًا وقد فات الجزار وعساكره أن آلات الحرب لا تدفع مقادير الله فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا عَلَى أحكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا أن الملك لله يؤتيه من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد أن أتم بونابرت أعماله وخططه الحربية سار إلى عكا فوصلها فى ٢١ أذار وحصرها خمسين يومًا وكان الجزار يتعهد الدفاع البرى والاميرال الإنكليزى سدنى سميث يتولى الدفاع البحرى فلم يستفد الفرنساويون شيئًا لأن الجنود العثمانية كانت تفد بكثرة عَلَى الجزار حتى غصت بهم عكا واستماتوا فى الدفاع بعد أن سمعوا ما فعله الفرنساويون بحامية يافا فخاب أمل نابليون وجرب أن يستميل إليه الأمير بشير الشهابى أو يؤلف جيشًا من الدروز فلم يظفر بموالاة أحد لأنهم كانوا يخافون بطش الجزار وشدته.

وفى أثناء حصار عكا أرسل نابليون فرقًا إلى الناصرة وصفد وامتلكها وحدثت معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك حول جبل طابور «الطور» فشهد نابليون المعركة بنفسه مع كليبر وهزم العثمانيين هزيمة منكرة.

ذكر المطران الدبس أنه أتى قوم من المتاولة إلى نابليون فولاهم قسمًا من هذه البلاد وولى الشيخ صالح بن ظاهر العمر مدينة صفد.

ولكن ثبات الجزار وعناده وشجاعته الفائقة غرست الخيبة فى نفس نابليون فقذف آخر سهم من كنانته وجمع جنوده وخطب فيهم خارج أسوار عكا كما خطب فيهم تحت ظل الأهرام وعلى ثلوج جبال الألب فقال:

«هذه المدينة هى مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم عَلَى امتلاكها لأن بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم ونملك شرق أوروبا وشماليها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم» فالهب حماسهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا

الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى موجودة فى متحف باريس فظهر الجزار بنفسهِ وأخذ يحرض جنوده عَلَى الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بامنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩م فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعًا إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى من ضرورة لإطالة البقاء فى سورية فعاد خائبًا مخذولاً وقد فتكت الأمراض والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون راحتهم وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر تلك الشيمة السامية فإنه أركب بعض جنوده حصانهُ الخاص ومشى عَلَى قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث بها طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١ م وجلت عن البلاد.

٧٧ - ثورة نابلس :

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ ابتداء القرن التاسع عشر كما يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لإيالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة عَلَى أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة وقوة فلم يأبه الوالى لهم بل شرع فى تحصيل الأموال غصبًا فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩ م وقاوموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد الله باشا أن يمدَّ واليها فصدع بالأمر ولقى النابلسيين شمالى فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعة صفد فحاربهم عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابى اللبنانى فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم عَلَى أعقابهم فاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصرهم عبد الله باشا وضيق عليهم فكانت النساء تغمس اللحف بالزيت

وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور كى يبصر رجالهن العدو ويرمونهُ بالرصاص.

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالى صانور وأحرق كثيرًا من القرى وأخيرًا ضعف المحصورون وذاقوا من العناء والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا. وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدها وتساعدها الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فإن قسمًا كبيرًا من أهالى البلاد انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة – أسرة جرّار الذين لم يكن معهم سوى حزبهم وحسب. ولم يبرح عبد الله باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسمًا كبيرًا من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لا يجد الثوار حصنًا يلتجئون إليها.

٧٨ - إبراهيم باشا فى فلسطين :

ولد محمد على باشا فى قوَلة بلد الإسكندر المكدونى من عائلة ارنؤودية وانخرط فى سلك الجندية وجاء مع حملة عثمانية سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م لإخراج الفرنسيين من مصر كما جاء صلاح الدين مع أسد الدين شيركوه فترقى وساعدته الظروف كما ساعدت ظاهر العمر والجزار وغيرهما فعينهُ خسرو باشا برتبة «سر جشمة» قائد فرقة وتقدم إلى أن رسخت قدمه فى وادى النيل ونفذت كلمته فانتخب واليًا «حاكما» عَلَى مصر سنة ١٢٢٠ هـ وسنة ١٨٠٥ م فاجهز عَلَى المماليك فى وقعة القلعة الشهيرة سنة ١٢٢٦ هـ وسنة ١٧١١ م وتاقت نفسه إلى توسيع سلطته والاستيلاء على سورية وفلسطين وتأسيس مملكة مستقلة فتخوفت منهُ الحكومة وعزلته وولت سواه فأبى عليها واستمال رجال الباب العالى وأغدق عليهم نعمه فأقروه فى منصبه ولكنهُ عرف أن الأخطار محدقة به وعزم عَلَى محو أعدائهِ الداخليين وسعى فى إبادة المماليك ففروا من وجهه إلى الصعيد والعريش وخان يونس وتبعهم الفقراء الذين أثقل كاهلهم بالضرائب والأعشار والسخرة

«العونة» فطلب إلى والى عكا عبد الله باشا أن يرد المصريين ولا يقبلهم فى بلاده لئلا يفسدوا عليهِ عمله فأغلظ عبد الله باشا عليه الجواب فساءه هذا الأمر البسيط وعده جرمًا كبيرًا وجناية عظمى وجهز جيشًا بقيادة ابنهِ إبراهيم باشا سنة ١٨٣١م فأبحر فى عمارة بحرية ونزل بيافا وكان قد سبقهُ جنده برًا ففتحوا العريش وامتلكوا غزة والرملة ويافا وذهب بعضهم لفتح القدس فقاتلهم جماعة أبى غوش ومن معهم من الرجال وصدوهم فاتجهوا نحو طريق وادى الشعير ونابلس فذللوا العقبات التى اعترضتهم وعبدوها وفتحوا نابلس والقدس ثم سار إبراهيم باشا بجنده إلى حيفا وجعلها مركزًا لأركان حربه ومستودعًا للذخائر والمعدات وشدد فى حصار عكا وأعانهُ الأمير بشير الشهابى فخافته الدولة وبعثت جيشًا لمحاربته فهب إبراهيم باشا لمناجزتهِ فالتقى بهِ قرب حمص وبدد شمله فقال الشاعر العربى «الجندى».

من مبلغ الأتراك أن جموعهم هزمت وأن حسينهم ولى إلى

فذاع صيتهِ وفتح عكا وامتدت فتوحاتهُ إلى ما وراء قونية وأخذ رشدي باشا قائد الجيوش التركية أسيرًا سنة ١٢٤٨ هـ وسنة ١٨٣٢م وتقدم إلى ضواحى مدينة بروصة ولولا تدخل الدول و تهديدها ووعيدها لدك عرش العثمانيين واستولى عَلَى مملكتهم. وفى سنة ١٨١٧م قدمت عصابة من الوهابيين إلى حوران وهددوا دمشق فأعدت لهم الدولة القوة وردتهم من حيث أتوا.

٧٩ - ثورة أمراء فلسطين ومشايها :

قدم إبراهيم باشا البلاد وهو يظهر أن عبد الله باشا خرج على الخليفة وقد أرسله السلطان ليؤدبه ويجازيه عَلَى عصيانهِ فصدقهُ البعض وأذعنوا إليه حتى انجلت لهم نيته ووضح مقصده وكلفهم بجنود وأموال لا قبل لهم بها فندم أمراء الإقطاعات عَلَى سكوتهم واجتمعوا فى قرية بيت وزن «غربى نابلس» واتفقوا عَلَى محاربتهِ ومقارعته فنكث جماعة منهم. ومالوا مع إبراهيم باشا فساعدوه ودلوه عَلَى الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم وفتح طول كرم ثم نابلس وعطف عَلَى القدس فاحتلها وقد تهافت الأهالى على قتاله من كل جانب

فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن أهالى الخليل هزموه عند برك سليمان وحصروه فى القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية فظفر بهم ودوخ البلاد وقتل من قتل وشنق من شنق وتزلف إليه البعض وهابه السكان فأصبحوا خاضعين لدولته وأوامره يقدمون الجنود ويدفعون الضرائب بلا ممانعة فبنى قشلاق باب الخليل واتخذ القدس له عاصمة ومكث يحكم فى البلاد ١٠ سنوات وفى سنة ١٨٤٠ م سنة ١٢٥٦ هـ خذلتهُ فرنسا وضغطت عليهِ دول التحالف فاضطرتهُ للتخلى عن جميع فتوحاته وسمحت له بمصر ولاية ممتازة يتعاقب عليها نسله من بعده بشرط أن تظل خاضعة للآستانة فقبل مكرهًا وتقدم أحفاده إلى أن صاروا ملوكًا.

٨٠ - حرب القرم :

طارت شرارة من فلسطين فأذكت حربًا ضروسًا بين الدول الكبرى وسلمت هى منها كقنبلة انبعثت من فوهة مدفع فلم تضره وانفجرت فى شرق أوروبا وقفقاسية فخربتهما. وأسباب هذه الحرب كثيرة منها، التنافس المستمر بين قسس الارثوذكس واللاتين وتسابقهم إلى حيازة الأماكن المقدسة فى فلسطين ومن خلفهم روسيا تؤيد الارثوذكس وفرنسا تعضد اللاتين لا لشفقة إنسانية أو عاطفة دينية ولكن لبسط نفوذهما فى الشرق وللتدخل فى شؤون الدولة العثمانية فرجحت كفة فرنسا سنة ١٧٤٩م وفازت بعقد معاهدة مع الدولة العثمانية نصت عَلَى أن لفرنسا الحق بحماية مسيحيى الشرق فاشتد أزر الكاثوليك واستولوا عَلَى الكنائس وتصرفوا بها تصرف المالك المستقل فاستاء الارثوذكس وغضبت حاميتهم روسيا وأخذت تسعى بنشاط لإلغاء هذه المعاهدة ومحق هذا النفوذ. فلما شغلت فرنسا بحروب الثورة الأهلية دفعت روسيا قسس الارثوذكس وكهنتهم إلى التحرش بالكاثوليك فتعدوا عَلَى حقوقهم وسلوبهم إياها فامتعضت فرنسا وصبرت كارهة إلى أن تعين نابليون الثالث وفاوض الدولة العثمانية وكاشفها برد حقوق أهل ملته المغصوبة فألف الباب العالى لجنة من أشخاص مختلفى المذهب وأناط بهم فصل هذا الخلاف بمقتضى المعاهدات الدولية القديمة فاجتمع الأعضاء وتذاكروا مرات ثم قرروا فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٦٨ هـ و ٤ شباط سنة ١٨٥٢ م أن

للكاثوليك الحق فى امتلاك بعض الأماكن المقدسة دون غيرهم فعارضت روسيا وحالت دون إنفاذ هذه الاتفاقية وهددت الباب العالى بالحرب إذا هو لم يعدل عن رأيه. وأصرت فرنسا على التمسك بحقوقها فترددت الدولة حينًا ثم جزمت ونفذت مضمون قرار اللجنة الأخيرة. فاتخذت روسيا هذا العمل ذريعة لتطبيق وصية بطرس الأكبر «الاستيلاء على استانبول والمضايق» وأرسلت البرنس منشيكوف سفيرًا غير اعتيادى إلى الأستانة ليخابر المابين فى شأن الأماكن المقدسة فذهب وباشر مناوراته السياسية وطلب بإلحاح شديد احترام معاهدة خونكار القاضية بان يكون لروسيا الحق بحماية جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية فماطله الباب العالى ثم خاشنه فقطع علاقته من حكومة الاستانة وهددها باحتلال إمارتى الأفلاق والبغدان «رومانيا» فتوترت السياسة وتحزبت إنكلترا لفرنسا وعضدتا الدولة العثمانية فأعلنت روسيا الحرب واجتاز عساكرها نهر البروث واحتلت الولايتين فعلاً فحشدت الدولة العثمانية جنودها وجمعت جمعًا كبيرًا من البلاد العربية(*) وبعثت بهم إلى حدود روسيا واشترك معهم جنود الإنكليز والفرنسيين واحتدم القتال فنال الفريقان ما ينال المحارب ولكن روسيا خذلت وتركت حصونها ومعاقلها.

وفى سنة ١٣٣٤هـ وسنة ١٩٠٦م اختلفت الحكومة العثمانية والدولة الإنكليزية عَلَى تعيين حدود مصر وفلسطين ثم اتفقتا عَلَى أن يختار كل منهما لجنة تنوب عنها فى فض الخلاف فاجتمع الأعضاء وخططوا الأرض وضبطوا الحدود وأصلحوا ذات البين.

٨١ - نقود وموازين ومكاييل فلسطين :

ما عرفنا حكومة كانت معرضًا تجاريًا لبلع بضائع دول أوروبا مثل البلاد العثمانية فإنها كانت مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلال المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطوحتها المنازع وقذفت بها من عل إلى درك

(*) كان أهل المدينة أو القرية يذهبون بعيدًا وراء الجنود المجندة فيودعونهم بالبكاء والنحيب وحينما يعودون من غيبتهم يعملون لهم الافراح والولائم والمهرجانات

الاستعمار. ومن الدلائل الواضحة عَلَى فوضى الحكومة العثمانية واستعمار أوروبا الاقتصادى لها أنها كانت عاجزة عن نشر نقودها فى مملكتها ضعيفة عن توحيدها وترويجها بسعرها القانونى فلذا أخذ يتداولها كل بلد كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت النقود وتباينت الموازين واختلفت المكاييل وهذا جدول يدلنا عَلَى النقدين الليرة الافرنسية والريال المجيدى «التركى» فى أسواق فلسطين.

المدينة	الليرة الافرنسية	الريال العثمانى «المجيدى»	البشلك
القدس	١٠٩	٢٣	٣
نابلس	١١٨	٢٥	١٣، ٣
يافا	١٢٤	٢٦	٣
غزة	٢٢٢	٤٧	٦
لواء عكا	١٠٨	١٢، ٢٣	١٦، ٣
الناصرة	١٣٠	٢٧	٣

وزد على ذلك أنهُ كان فى بعض القرى أسعار خصوصية للنقود غير داخلة فى ما ذكرناه مما يدل عَلَى أن الحكومة فى واد والناس فى وادٍ آخر لا يأتمرون بأمرها ولا يسيرون سيرها حتى إن الليرة الأفرنسية راجت أكثر من الليرة العثمانية فكان إذا باع أحد دابته أو ساوم على سلعته بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الافرنسية ومن أراد غيرها لزم عليه التعيين، وحسبنا شاهدًا المتليك الأسود وما أحدثه من الشغب فى القدس فإن بعض التجار امتنع عن قبضهِ فسرى ذلك إلى الجميع ورفضوا استعماله والتداول به فنقصت قيمته ٧٠ فى المائة فأدركت الحكومة هذا الخطر الاقتصادى وخشيت تفشيه فى البلاد الأخرى فتلافتهُ. وضرب اليهود لهم نقدًا «تنكة ببارتين ونصف» فراجت بين أهالى القدس وشاعت بين الجميع.

أما المكاييل فليست بأحسن من النقود فإنها مختلفة الحجم متعددة النوع وهى: ثمنية، سدسيه، ربعيه، صاع، طبة، كيل، كيلة، مد، مسحة فبعض

البلاد تستعمل بعض هذه الأنواع وبعضها لا يعرفها وقد اتخذت عيارات أخرى والبلاد التى تشترك فى مكيال واحد تختلف فى كبره وصغره فطبة نابلس ثلاثة عشر رطلاً وثلث رطل، وطبة القدس ثمانية أرطال وصاع بنى صعب ثلاثة أرطال وصاع بنى زيد ستة ونصف، ثم لكل بلد اصطلاحات واعتبارات أخرى من حيث الكيل فبعضها يهز الصاع ويلبدها ويتفننون فى سمله وطنطرته وبعضها يستعمل كيل المرسل(*) وكذلك الموازين فإنها متباينة جد التباين فالرطل المشهور فى أكثر المدن ١٢ أوقية ولكنهُ فى عكا وبلادها اقتان فقط وامتاز بعض البلدان بأرطال خصوصية لبعض أنواع المبيعات فرطل الدخان ١٦ أوقية والعسل ١٨ واللحم ١٦ أو ١٨ أو ٢١ وغير ذلك وجرة الزيت متفاوتة أيضًا فهى فى نابلس غيرها فى القدس وفى يافا غيرها فى حيفا وعكا وللقرى عيارات خاصة فجرة الزيت تتراوح بين سبعة أرطال إلى تسعة و ١٠ و ١١ و ١٦ و ١٨ وهلم جرا فالمسافر الذى يطوف فلسطين يفتقر إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم الموزونات والمكيلات فكيف به إذا ساح فى جميع الأقطار العثمانية.

٨٢ - بعض أسواق فلسطين :

كان للعرب منذ جاهليتهم أسواق ينتجعونها ويرتادونها فيستبضعون منها ما يحتاجون ويعرضون ما كانوا مستغنين عنهُ وهناك كانوا يتطارحون الأشعار ويتناشدونها فإذا ما انقضى زمن الموسم انصرف بعضهم إلى البوادى والمنازل واستأنف البعض الآخر السير حيث المواسم الأخرى وقد أخذ سكان فلسطين أسواقهم عن تلك المواسم الكبيرة وقصروها عَلَى عرض المبيع فقط «أسواق تجارية» فترى الأقوام يتوافدون إليها من الصباح زرافات زرافات إلى أن تغص بالجماهير الطالبة والعارضة فيجول الشارى ويتردد بين البائعين وينتقى منهم ما يعجبه ويروق له فيسومه ويشتريه ثم ينصرفون قبيل العصر وأشهر هذه الأسواق: سوق اللد وتقام يوم الاثنين من كل أسبوع. أسواق الناصرة والرملة وبئر السبع وتقام يوم الأربعاء وسوق بنى صعب وتقام يوم السبت أما أسواق القدس وغزة ومجدل

(*) بلا هز ولبد بل كما يسع الصاع.

عسقلان ويافا والخليل ونابلس فكلها تقام يوم الجمعة من كل أسبوع فلو اعتنت الحكومة بهذه الأسواق الطبيعية ووسعتها ونشطتها وحولتها إلى معارض تجارية وأدبية لاستفادت منها كثيرًا.

٨٣ - أقسام فلسطين الإدارية :

مر بفلسطين أطوار شتى كانت تنفرد بنفسها أو تقتسمها مصر أو سورية ثم لا تلبث أن تنضوى تحت جناح أحدهما أو تنضم سورية ومصر إلى العراق وتصير جميعها كتلة واحدة وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم أما فى القرن التاسع عشر فقد انتاش فلسطين تقلبات إدارية كثيرة نلخصها كما يأتى:

كانت عكا حاضرة فلسطين الإدارية الوحيدة ثم قطعت صيدا قسمًا منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكا ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام «باشا الدورة» أما النظار والمتسلمون «حكام البلاد» فكانوا وطنيين من فلسطين يحكمون مقاطعاتهم ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم «باشا الدورة» فيأخذ منهم ما تعهدوا به. فلما اعتزم السلطان محمود عَلَى الإصلاح ألغى فرق الانكشارية(*) وأبادها ومحا الطوائف الأخرى كالسلاحدارية والعلوفجية واستبدل بها فرقًا منظمة وغير العمامة بالطربوش الرومى وتزيى بالزى الأوروبى وأمر باتخاذه زيًا رسميًا وعسكريًا.ثم جاء من بعده من الملوك فأدركوا أنهم غرباء فى البلاد العربية وتهجموا عَلَى فلسطين فنفوا بعض النظار «أمراء الإقطاع» إلى طرابزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات عَلَى رأسها وطنيون ثم الغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الإقطاعية واستولى الأتراك عَلَى البلاد فعلاً فأمروا بتحرير النفوس وطوّبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام «البوليس والجندرمة» وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عدلية بيروت

(*) لهم بقية فى فلسطين عائلة أبى جعفر فى الرملة ويوجد عائلات أخرى فى القدس ونابلس وعكا وغيرها

وامتازت القدس فصارت متصرفية مستقلة تخابر الآستانة مباشرة في الأمور الإدارية وفى ابتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكا ملحقا ببيروت.

ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فأرسلوا مأموريهم الأتراك وقبضوا دفة الإدارة واتصلوا بالشعب ولكنهم تقربوا من أصحاب النفوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمادوا فى غطرستهم واستعانوا بقوة الحكومة واتخذوها آلة لتنفذ مآربهم فتسابقوا إلى تقديم الطاعة وترويج أوامر الحكومة ابتغاء الحظوة عند المأمورين وكان يعد سعيدًا من كسب ثقتهم وظفر بودهم لأنه يستفيد من صحبتهم بغض أبصارهم عن أعماله مهما كانت فيبطش ويستبد بالضعاف والفقراء ويغتصب أملاكهم ويمتص دماءهم ويبتز أموالهم ويعلو علوًا كبيرًا.

٨٤ - قيس ويمن وشيء عن الإقطاع :

هذا بحث جليل وددنا لو أن فى الكتاب متسعًا فنفيه حقه ونأتى على تاريخه بالتفصيل ولكن صدر السطور ضيق والموضوع محصور فى فلسطين فلذلك نجمل ما خرج عنها وندمجه فى أخبارها لئلا ينبتر البحث وتضيع الفائدة.

إن هذا الانقسام ظهر بين العرب قبل الإسلام وظل إلى يومنا هذا مصطبغًا بصبغات عديدة وأسماء مترادفة منها: العدنانية والقحطانية والحجازية واليمنية فى الجزيرة والقيسية واليمانية فى جميع الممالك الإسلامية خلا الأناضول وغربها. اليزبكية والجنبلاطية فى لبنان والفقارية والقاسمية فى مصر.

أما أسباب هذا الانقسام، فإن أهل اليمن كانوا يدعون أنهم أشرف وأفضل من سكان الحجاز والحجازيون ينكرون ذلك ويدلون بأفضليتهم عليهم فتمادوا فى المناظرة والمفاخرة حتى أدى ذلك إلى المشاحنة فوشجت النعرة العصبية وتحزب كل قبيل إلى أهله فاشتعلت الحرب الأهلية وتنبهت قرائح الشعراء ففتحوا بابًا خاصًا لمديح قومهم وذم خصومهم فجاء الإسلام وهم أحزاب متطاحنة فأنساهم تلك الأحقاد وجبّ ما قبله وجمع كلمتهم وأشغلهم عما مضى فانطوت الحزازات

والأحقاد ولبوا دعـوة الجـهاد وطفقـوا يفتحـون البلـدان ويقتسـمون الغنـائم إلى أن تمهدت الأمور وتبدلت الخلافة بملك فرجعوا إلى شنشنتهم الأولى ونبضت العصبية القيسية واليمانية فى مرج راهط فاستفزها بنو أمية وعملوا عَلَى إحيائـها فصـاهروا اليمانيين وتعصبوا لهم وكانوا يغزون بهم فى البر ويغزون بقيس فى البحر فشمخ اليمانيون ونقم القيسيون فاضطر معاوية أن ينصف بينهم ويغـزو بـهؤلاء سـنة فـى البحر وبأولئك سنة فانتصف القيسية ولكنهم لم يشكروا بنى أميـة وجـافوهم ولم يوالوهم فأطال شعراؤهم ألسنتهم عليهم وفاخروا ببنى هاشم وانبرى إليهم مناظرهم فكانوا يخرجون إلى أسواق البصـرة والكوفـة ويتفـاخرون ويتـهاجون فأشـعلوا نـار العصبية وأججوها فى أواخـر القرن الأول للـهجرة فتغلغلـت فـى قصـور الأمـراء وتخللت دواوين الحكام الذين انحازوا إلى قومهم فأعلوا شـأنهم وحطـوا مـن شـأن عدوهم فشجر آنـذاك الخـلاف ونتـج نـزاع مسـتمر أسـفر عنـه ضعـف بنـى أميـة وانقراضها. وقد سـرت هـذه الـروح فـى الدولـة العباسـية ومـا بعدهـا مـن الـدول فاستعلى الأعاجم وتقدموا والعرب لاهون فى قيسيتهم ويمانيتهم التى تمشـت فـى نفوس بنيهم وورثها أحفادهم فكان إذا حدث أو دب فى النفس ما يحركـها تثـور فيصطدم الحزبان ثم تنطفئ وقد زمت الجوانح عَلَى فساد.

فلما قدم السلطان سليم العثمانى إلى البلاد العربية وفتح مصـر–كـانت النفـوس قد سئمت والعزائم كلت وكاد الناس يتناسون التحزبات–فرغب فى مشاهدة حلبة سباق عربية وأمر بتشكيل فرقتين «صابيتين» وترأسهما قاسم وذو الفقار أبناء أحد المماليك وشرعا يلعبان بهزل كما نشاهد سباق الخيل فـى عصرنـا هـذا فانتعشـت النفوس وجاشت الهمم واختلط المزح بالجد ونشبت بينـهم ملحمـة كـبرى نفضـت جميع ما تراكم على هذه النعرة العصبيـة ورجـع النـاس إلى شـيمتهم وتحزبـوا إلى اللون الأحمر شعار القيسية واللون الأبيض شعار اليمانيـة ونـهض رؤسـاء القبـائل القيسية واليمنية فنشطوا وأحيـوا أحزابـهم حتـى أصبحـوا–أنـى وجـدوا وحيـث اجتمعوا–لو تعارضت مصالحهم عمدوا إلى القتال وعادوا للعراك وقد ورد فى بعض الفتاوى أن شهادة القيسى عَلَى اليمنى غير جائزة وشـهادة اليمنـى عَلَـى القيسـى

غير مقبولة مما يدل عَلَى أن العداء السياسى مستأصل فى نفوسهم. وآخر محارباتهم لم يكن عهدها عنا ببعيد.

كانت فلسطين منقسمة إلى مقاطعات وفى كل مقاطعة أمراء ومشايخ يرأسون من ينتسب إليهم من سكان تلك البلاد فكانت العزة والسيطرة والسيادة فى جميع بلاد الساحل والسهل إلى البدو سكان الوبر فبلاد السبع وغزة كانت منقسمة بين العزازمة والحناجرة والترابين والتياها والجبارات. فالعزازمة يمانيون ومشايخهم أجداد ابن سعيد وأمراء الترابين عائلة أبى ست وأمراء التياها الهزّيل إلا أن أنساب هذه القبائل غير صريحة فإنها مزيجة من عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسى واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمراؤهم دار عمرو. مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحام فإنهم يمنيون. وأمراء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حسن ومركزهم المالحة ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة «دار الخطيب» فى بيت أكسا والدباونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار «حمير» ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم رأس كوكو والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم رأس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجيوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يقتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجدل يابا وفى مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أماغور الفارعة فكانت تقتسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين «مشاريق الجرار» جرَّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارتى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفهُ دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاءَ إبراهيم باشا استعلى

دار عبد الهادى «قيسية» وشطروا البلاد فانضم اليهم حزب كبير. وهم وجرار من فصيلة واحدة. وكان أمراء غور بيسان عرب الغزاوية والصقر وفى ساحل حيفا دار ماضى وبجانبهم أهالى صبارين ودار الشبلى فى طيرة حيفا أما فى بلاد عكا فكانوا عرب الحواسى «الهنادى» ومركزهم غاية شفا عمرو ولم يكن لغيرهم هناك عصبيات قوية مجتمعة ولا عائلات كبيرة بل كلما عظم شأن رجل انساق إليه حزب وسيطر على ما جاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شجر خلاف داخلى فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهم بعضًا وقاوموا الحزب الآخر ومن أحسَّ فى نفسهِ الضعف استمد من الحزب المجاور له واستنصر بنى قومه عَلَى عدوه وقد تفاقم الخطب فى القرن التاسع عشر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجرؤ عَلَى المرور ببلاد الآخر معلنًا شعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروسًا قيسية لا يذهبون إلى جلبها إلا «بفاردة» جمع كبير مسلح ولا يجوز لهم أن يرفعوا أعلامًا بيضاء أو يلبسوا العروس (هدمًا) بيضاء «شعار اليمنيين» حتى إنهم لو أخذوا عروسًا يمنية من بلاد يمانية فلا يسمح لهم أن تجتاز البلاد القيسية وهى لابسة البياض وإن امتنع أصحاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشر وكذلك القيسية فإنهم كانوا مجبورين على اتباع هذا العرف ولا ينكرون عَلَى البلاد سيادتها وعاداتها فإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خربثة. وقد أخذت هذه العادة فى الخفاء والانمحاء فلا يمضى عليها فترة من الدهر إلا وتنسى ولا يدرى الرجل أهو قيسى أم يمانى.

٨٥ - الحرية فى فلسطين :

تكونت الدولة العثمانية بقوة السلاح وبنيت عَلَى الحروب وأغفلت كل شىء فتقدمهم من كان متأخرًا عنهم وعلاهم من كان دونهم.فحاول السلطان محمود الإصلاح فلم يتوفق تمامًا ولكنهُ أزاح عن أعين المفكرين نقابًا وجاء من بعده

السلطان عبد المجيد فنشر خط كلخانة سنة ١٢٥٥ هـ وسنة ١٨٣٩م ونظم القوانين والمحاكم والإدارة الملكية وغيره ذلك مما تتطلبهُ الحضارة ويلائم حالة الأمة إلا أن إرادة السلطان كانت فوق كل قانون فجاء مدحت باشا بطل الحرية وأبو الدستور ورئيس أحرار العثمانيين وتعهد للسلطان عبد الحميد قبل أن يجلس عَلَى العرش أن يمهد له السبل ليكون سلطانًا بشرط أن يمنح الدستور للأمة ويمتع البلاد العثمانية بالحرية فوعده بتنفيذ ذلك ولما بويع عبد الحميد بالسلطنة أعلن الحرية ونشر القانون الأساسى وأمر بانتخاب نواب عن جميع البلاد فذهب عن القدس العلامة الكبير يوسف ضيا باشا الخالدى وفتح المجلس سنة ١٢٩٤هـ ولكن لم يطب لعبد الحميد هذا العمل وشعر أنهُ مقيد ففضه وأغلقه سنة ١٢٩٥هـ وشرد الأحرار وطردهم ونفاهم وبطش بالمتنورين وساس البلاد بالاستبداد والإرهاب فأكبر ذلك الشبيبة العثمانية الراقية وأبوا أن يخضعوا لسلطة رجل غشوم فعملوا سرًا وعلنًا وفازوا بأمنيتهم فأعلنوا الحرية مرة ثانية فى عهد هذا السلطان وضبطوا الأمور حذرين من خداع المستبدين واستمالوا الجيش العسكرى واحتلوا المراكز المهمة فأذاعوا الحرية فى طول البلاد وعرضها وكتمت فى القدس حتى جهر بها الحاج راغب أفندى الخالدى والمرحوم حسين أفندى سليم الحسينى وكان شعار الناس قاطبة حرية عدالة مساواة فكثر الفساد وعم التعدى وضعفت الإدارة الملكية وسادت الفوضى وَضَئُولَتْ هيبة الحكومة وطمح الناس إلى احتقار الحكام وجهلوا معنى الحرية فظنوها الاشتراكية أو الفوضوية فكان الرجل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف وإذا عنفته أو زجرته قال حرية مساواة.

ثم أمر بانتخاب نواب من البلاد فذهب عن لواء القدس المرحوم روحى بك الخالدى(*) وسعيد أفندى الحسينى وحافظ بك السعيد (يافا) وعن لواء نابلس الشيخ أحمد أفندى الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد أفندى شقير وفتح المجلس وبعد حين باغتهم السلطان عبد الحميد وفتك بالأحرار وأعلن ثورة ضدهم

(*) كان من علماء الأمة العربية وفضلائها تقلد فى مناصب عالية،وله مؤلفات جليلة بعضها طبع والبعض الآخر جاهز للطبع.

باسم الدين وحـاول القضـاء عَلَـى الـروح الجديـدة فداهمـهُ محمـود شـوكت باشـا الفاروقى واحتل الاستانة فاجتمع النواب وقـرروا خلـع السـلطان سـنة ١٣٢٥ هـ وسنة ١٩٠٨م وأمنوا شر الطاغيـة الكـبرى وجعلـوا مكانـه محمـد رشـاد الخـامس وهنالك تكـبر الاتحـاديون وتولـوا إدارة البـلاد فقـال بعضـهم باسـتتراك العنـاصر الأخرى أو إبادتهم ولعبت الأيـدى الأجنبيـة فـهبّ رجـال العـرب وانضـم إليـهم معتدلو الأتراك فأسسوا حزب الائتلاف وزاحموا الاتحاديين وحـاولوا أن يكـثروهم فى المجلس فطافوا البلاد وخطبوا فلم ينجحوا وذهب عن القدس ثانية روحى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبى وأحمد عـارف الحسـينى (غـزة) وعـن نـابلس حيدر بك طوقان وعن عكا الشيخ الشقيرى فلم تطل مدتهم وحـل المجلـس وأعيـد الانتخاب ثالثة فحاز الأكثرية عن القدس راغـب بـك النشاشـيبى وسـعيد أفنـدى أفندى الحسينى وفيضى أفندى العلمى وعن نابلس توفيق أفندى حماد وأمين بـك عبد الهادى وعن عكا عبد الفتاح أفنـدى السـعدى. فتنبـه العـرب وأدركـوا أنـهم مغلوبون عَلَى أمرهم والأتراك مسيطرون عليـهم فلـم يطمئنـوا ولم يرضـوا عـن هـذا الجور فهب أهالى سورية مطالبين بالإصلاح علـى قـاعدة اللامركزيـة أى اسـتقلال داخلى إلى جميع بلاد العـرب وجـهر بعـض النـواب والوجـهاء بأمنيتـهم ونـادى طلاب مدارس الآستانة بهذه الدعوة وعقدوا الاجتماعات وأسسوا النوادى والجرائد والمجلات ليدافعوا عن قضيتهم ثم عقـدوا مؤتمـرًا عامًـا فـى بـاريس تداولـوا فيـه أبحاثًا هامة وقرروا قرارات خطيرة وبثوا دعاتهم فى سائر الأقطار والأمصـار فكـان داعيتهم فى القدس أبو حسين النشاشيبى فأشبع روح الشـباب بتعاليمـه الوطنيـة حتى عالنوا الحكومة بأمانيهم وجاهروا ونقموا سياسة الأتراك ووجهوا نظرهم نحو الجزيرة وعلقوا آمالهم بمنقذ العرب السلطان حسين الهـاشمى فاستوحشـت منـهم الحكومة العثمانية وترضتهم وهادنتهم واعتزمت على أن تحدث تغييرًا فى قوانين وشكل إدارة البلاد العربية وقد نال بعـض رجـال العـرب منـاصب عاليـة وأمـرت الحكومة أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد التى يكون أكثرها عربًـا. وبينمـا هم يستخلصون حقوقهم تدريجيًا فاجأتهم الحرب العامة فأخمدت الجذوة العربية المتقدة فى الصدور والأنوف الحمية.

٨٦ - ثورة حوران والكرك :

أشرقت الحرية فى البلاد العثمانية فشملت السكان نشوة طيش وتـاقت نفـوس الاتحاديين إلى تجديد دولتهم فى سنة واحدة ليضارعوا دول أوروبا العظمى وكادوا يدركون غايتهم لو سـلموا مـن الدسـائس الأجنبيـة وحكمـوا العقـل قليـلا ولكنـهم تهوروا وكلفوا البلاد فوق طاقتـها فطـالبوا البـدو بتقييـد نفوسـهم وإجبـارهم علـى التجنيد وأكرهوهم على دفع الضرائب تمامًا فاستاء لذلـك دروز حـوران وشمخـوا وتعـالوا ونبـذوا الأوامـر وعصـوا الأحكـام فـانقض عليـهم سـامى باشـا الفـاروقى كالصاعقة أدبهم وأخضعهم ونفى زعيمهم وطرد قادتهم وشيوخهم فاذعنوا مسلمين وسلموا طائعين. وبلغـه أن أهـالى الكـرك قـد امتنعـوا عـن تعـداد النفـوس وفتكـوا بالمأمورين بتحريض عائلة المجالى فزحف إليـهم واجتـاز شـرقى الأردن وأدخلـهم فى الطاعة وكتب نفوسهم وعد أغنامهم ونفى زعيمهم توفيق بـك المجـالى وجعـل أرضهم بلادًا عثمانية فعلاً وقسا عليهم ونكل بمن تعدى عَلَـى المـأمورين واسـتهان بأوامر الحكومة الرسمية ثم عاد راجعًا. وقد حدث فـى هـذه الفـترة أن اكتسـحت النمسا بلاد البوسنة والهرسك وانقضت إيطاليـا عَلَـى طرابلـس الغـرب فاعترضـها السنوسى وانضم إليه زمرة من أبطال الاتحاديين فأتعبوها وأشجوها.

واجتمعت دول البلقان وحـاربوا الدولـة العثمانيـة فـهزموها واغتصبـوا بلادهـا المأهولة بالأتراك والعناصر الأخرى وهوت الدولة التركية من شامخ مجدها.